نقد مفهوم العصبية عند ابن خلدون على ضوء نظريات الدولة الحديثة

أ. بلعدل الطيب .
أ. حمادي نور الدين .
المركز الجامعي بالجلفة

مقدمة

لقد ثبت باستقراء النصوص التاريخية المختلفة، وجود صراع دائم ومـزمن بين النظام القبلي، ونظام الدولة، وغالبا ما يفضي هذا النـزاع إلـى انـدحار أحـد الأطراف ليفسح المجال للآخر، ومن الضروري الإشارة أن(القبلية) لا تشكل خطـرا على الدولة من حيث (البنية الهيكلية والتنظيمية)، وإنما خطرها كل الخطر هو ذاك الشعور المتجانس والمشترك بين أفرادها، الذي يشكل لحمتها وسداها وينمـي روح التضامن بين أفرادها، ويشكل بذلك نظام دفاعي وهجومي، ضد أي شكل من أشـكال النظم الأخرى، وبطبيعة الحال ضد "مفهوم الدولة"

وقد عبر عن تلك الروح الملازمة لهذا الشعور العلامة ابن خلدون بمفهـوم "العصبية" والمتتبع لمسار تشكل الدولة، يجد أن هذا الصراع قد حـسم فـي مـرات عديدة لصالح الدولة، فساد نظامها، وهذا مـا يمكـن ملاحظتـه فـي المجتمعـات المتحضرة: كمصر، الفرس، الإغريق، والرومان وفي المقابل خسرت الدولة صراعها مع مجتمعات أخرى لأنها كانت تتميز في غالب الأحيان بضيق الـنفس ومحدوديـة الحركة، نظرا لحاجتها لعاملين: الاستقرار وطول العمر مما جعل من الصعوبة بمكان ترويضها، ومن هذه الشعوب التي هيمنت عليها الـروح العـصبية نجـد العـرب، الأمازيغ، الترك، الأكراد، المغول، حسب ابن خلدون وممكن إضافة مجتمـع الهنـود

الحمر، حسب دراسة الأنثربولوجي : هنري لويس مررغان (1821/1818) والتي اعتمدها فيما بعد ماركس وأنجلز لتبرير الاتجاه القائل : بالحالة الشيوعية كنموذج مثالي .

وقد التفت بن خلدون لهذا الشعور المتين " العصبية " بفضل دراسته للأدب العربي الزاخر بالشواهد والأمثلة .

ولئن كان مصطلح العصبية يرتبط بأذهان الكثير بمرحلة العصر الجاهلي، فقط . فإنه من الضروري ابتداء التنبيه إلى حقيقة أن الإسلام بفترتيه الزاهرتين " عهد النبوة "، و" وعهد الراشدين " قد نجح في كبح جماح العصبية واستغلال جانبها الإيجابي، ليفسح المجال لرابطة أعمق وأرسخ هي الرابطة العقائدية، على أن يتم رويدا رويدا القضاء على العصبية المقيتة بإستغلال عنصر الزمن، ومفعول تعاليم الدين في جدلية رائعة تتمثل في :اقصاءالنعرة القبائلية، واستبدالها بالمعاني الحديثة.

وما إن قامت الدولة الأموية بفكرتها العربية لدوافع سياسية معروفة، حتى تم إذكاء نار العصبية من جديد لتهيمن لفترات غير وجيزة عبر التاريخ، مهددة كل مرة مفهوم الدولة الحديثة التي تقوم على أسس تخالف " مبدأ العصبية " لتحل مكانه مبدأ آخر هو " مبدأ المواطنة ".

ترجمة ابن خلدون

ابن خلدون : 732ـ 808 هـ = 1332ـ 1406 م

عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أوزيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من اشبيلية ومولد ومنشأه بتونس. رحل إلى فارس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزي بزي القضاة محتفظاً بزي بلاده. وعزل، وأعيد وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحاً. جمل الصورة عاقلاً. صادق

اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحا للمراتب العالية، ولما رحل إلى الأندلس اهتز لـه سلطانها، وأركب خاصته لتلقيه، وأجلسه في مجلسه، اشتهر بكتابه:"العبر وديـوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر – ط" في سـبعة مجلـدات: أولهـا المقدمة. وهي تعد من أصول علم الاجتماع ترجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنـسية وغيرها. وختم "العبر" بفضل عنوانه " التعريف بابن خلدون" ذكر فيه نسبه وسـيرته وما يتصل به من أحداث زمنه. ثم أفرد هذا الفصل، فتبسط فيه، وجعله ذيلا للعبـر. وسماه:"التعريف بابن خلدون، مؤلف الكتاب، ورحلته غرباً وشرقاً– ط" ومن كتبـه " شرح البردة" وكتاب في "الحساب" ورسالة في "المنطق" و"شـفاء الـسائل لتهـذيب المسائل"ط. وله شعر.

وتناول كتّاب من العرب وغيرهم، سيرته وآراءه في مؤلفات خاصة منها:

– حياة ابن خلدون ط: لمحمد الخضر بن الحسين.

و– فلسفة ابن خلدون: لطه حسين.

و– دراسات عن مقدمة ابن خلدون ط: لساطع الحصري. جزآن.

و– ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري ط: لمحمد عبد الله عنان.

و– ابن خلدون.ط: ليوحنا قمير ومثله لعمر فروخ.

الدراسات حول ابن خلدون

قمنا بعملية مسحٍ شاملة لأهم الدراسات التي كتبت حول المفكر ابن خلدون، والقصد منها تزويد الباحثين بالمادة العلمية التي تناولت هذه الشخصية مـن عـدة جوانب، وتلافياً للتكرار في الدراسات ولا يفوتنا هنا أن نشير أنه تـم التغافـل عـن بعض الدراسات الأخرى لتكرارها، كما أننا نأسف لعدم وجود ببلوغرافية للدراسـات والأطروحات الجامعية حول المفكر ابن خلدون.

"أ" المقالات:

– ابن خلدون في مجلة الحديث، عدد خاص، حلب 1933م.

- ابن خلدون المغرب وهربرت سبنسر: في مجلة المقتطف.
- ابن خلدون والعرب، في مجلة الحديث28/1.
- ابن الشيخ جمال الدين: من القوالب اللسانية إلى الأساليب الشعرية.
- ابن خلدون وماهية الشعر: في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير1974، ص47-56.
- ابن شريفة (محمد)- ابن تاويت الطنجي محققاً لآثار ابن خلدون.
- في أعمال ندوة ابن خلدون، 14-17- فبراير 1974، ص163-172.
- ابن عاشور (الفاضل)- رأي ابن خلدون في وسطه الاجتماعي، في العالم الأدبي، السنة3، العدد 9-05-1932 ص2-4.
- أبورية- مقدمة ابن خلدون وطبعاتها- في مجلة الرسالة رقم 11.
- أبو زيان (محمد علي) تصنيف العلوم بن الغرابي وابن خلدون.
- في مجلة عالم الفكر. العدد الأول. أفريل.ماي. يونيو1978 ص97، 122.
- اوملیل (علي)- ابن خلدون في مجلة المجتمع العلمي، دمشق- مجلد 09 ص426.
- أعمال مهرجان ابن خلدون لسنة 1962، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.
- بدوي (عبد الرحمن) ابن خلدون ومصادره اللاتينية في أعمال ندوة ابن خلدون، 14-17 فبراير 74 ص135-157 " منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- بدوي محمد- المرفلوجية الاجتماعية وأسسها المنهجية عند ابن خلدون في أعمال ندوة ابن خلدون، 14-17 فبراير 1974، ص173-182.
- السبتاني فؤاد- الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون في مجلة المكشوف عدد 150.
- زريق قسطنطيني- درس جديد ابن خلدون- في مجلة الطليعة رقم18، ص321.

- زنيبر محمد- الصفاعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي. في أعمال ندوة ابن خلدون ص277-324.
- السرحتي مصطفى عبد اللطيف. شخصية ابن خلدون في كتاب الأستاذ عبد الله عنان في الرسالة عدد 63.
- السنوسي زين العابدين- السنة 555 الأخماس عن وفاة ابن خلدون في مجلة الفكر، العدد الخامس، فيفري. ص 504.502.
- السويس محمد- شرح صفحة ابن خلدون في العلوم العدية. حوليات الجامعة التونسية عدد10، 1973، ص87-94.
- الثماني نبيل. تاريخ المعارف والضائع في مقدمة ابن خلدون. في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير 1974- ص 219-256.
- صالح محمد- التفكير الاقتصادي العربي في القرن الخامس، في مجلة القانون والاقتصاد 1933.
- الصغير ابن عمار- فلسفة ابن خلدون الواقعية اللاعرافية أو المفهوم لكمة " عرب" عند ابن خلدون الأصالة. عدد 04 أوت 1971، 32. 38.
- الطالبي محمد. مقدمة ابن خلدون وتاريخ النظام السياسي، الندوة في مجلة الجامعة العدد الثاني 1955. ص1-11.
- الطالبي محمد. النظرية الارتقائية. بدورها في التفكير العربي الإسلامي وأثرها في مقدمة ابن خلدون. في أعمال ندوة ابن خلدون، 14-17 فبراير 1974. ص 305-216.
- التازي عبد الهادي- ابن خلدون سفيراً- في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 76 ص 365-386.
- التركي عبد المجيد- كيف يفسر ابن خلدون ظاهرة ازدهار العلوم الدينية وركودها بالمغرب والأندلس. في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير 74. ص 257-27.

- الجابري محمد عابد- اسبتيمولوجيا المعقول واللامعقول في مقدمة ابن خلـــدون. في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير 74. ص370-130.
- جبري شفيف- مصطلحات ابن خلدون ومكانته في تاريخ الفكرة في مجلة الأديب عدد08. المجلد 26، 1951 ص 370-376.
- جمعة محمد لطفي: تاريخ فلاسفة الإسلام. دراسة شاملة عن حيـــاتهم وأعمـــالهم ونقد تحليلي عن آرائهم الفلسفية ص225-252.
- جورجي زيدان- ابن خلدون في مجلة الهلال. رقم393. مجلد 42.
- حميشي ابن سالم- ابن خلدون وتجربة التاريخ المسدود.فـــي أعمـــال نـــدوةابن خلدون14-17فبراير1976ص837-899.
- خشبة الدريني:دراسات في مقدمة ابن خلدون في مجلةالرسالةعدد757. 1944.
- ذويب عبد الحميد: المدن في مقدمة ابـــن خلـــدون: الحيـــاة الثقافيـــة عـــدد 03. السنة04، 1979. ص 24-29.
- رئيف خوري- نظرة في ابن خلدون وهيجل. في مجلة الطريق عدد 03-56.
- روزنتال.ف: ابن خلدون رائد السياسة الحديثة: ترجمة سعيدة غنيم، المجلة سجل الثقافة الرفيعة، العدد 20 السنة02. أغسطس 1958. ص70-75.
- رعد سعيد محمد: دور بجاية في تكوين نظرية ابن خلدون التاريخية العمرانية عند العمران البشري وأثر ذلك في تاريخ الفكر الإسلامي- الجزائر 1974. مجلد 02.
- رعد سعيد محمد: موجز كتاب العمران. جنيف: منشورات المركز الثقافي الإسلامي 1948 ص102.
- طرشونة محمود: نظرية ابن خلدون في الاقتصاد والعمران. العدد 10 السنة 12. جويلية1967، ص65-68.
- العبادي عبد الحميد- لو عاش ابن خلدون في هذا العصر. فـــي مجلـــة الهـــلال، أبريل1939، ص132.

- عبد الرحمن طه- عن الاستبدال في النص الخلدوني- في مجلة بغداد، مجلد04. عدد21.
- العروي عبد الله. ابن خلدون ومكيافيلي.في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير 1974 ص 183-203.
- عنان محمد عبد الله: ابن خلدون ومكيافيلي. في مجلة الرسالة عدد 19. ص23-20-20.
- عنان محمد عبد الله. ابن خلدون والنقد الحديث. في مجلة المقتطف6، رقم83.
- عياد كامل. ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع- في مجلة الحديث. حلب 07.
- فاخوري عمر: مقدمة الدراسات- ابن خلدون في مجلة الحديث.حلب 06.
- فارس بشير: ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية- في مجلة المقتطف. رقم 68.
- فارس بشير: مقدمة ابن خلدون- في مجلة الرسالة، رقم 06-07- 1939.
- القبلي محمد: ما لم يرد في كتابات ابن خلدون. في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير1974 ص374-362.
- كرد علي محمد: ابن خلدون وتيمورلنك- في مجلة المجتمع العربي. الجزء الأول المجلد23. 1948.
- اللبان إبراهيم : عبقرية ابن خلدون. مجلة سجل الثقافة الرفيعة السنة الخامسة. عدد 60، 1962.
- لانغاد(جاك). فلسفة اللغة لابن خلدون- في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير1974. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- حمصاني صبحي- النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون. في مجلة الأديب، عدد02.
- المراقب عبد الكريم- منزلة العقل عند ابن خلدون. الحياة الثقافية، السنة الأولى: العدد01 جوان 1975. ص19-20-21.
- مزيان عبد المجيد: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 2981.

- المقدسي أنيس: العشرة المدعون في تاريخ الفكر العربي، ابن خلدون فيلسوف. المؤرخون ورائدهم الاجتماع، في مجلة الآمال. عدد06.
- المنوني محمد. نماذج من اهتمامات المؤلفين العرب بالمقدمة. في أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فبراير 1974. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.
- مهندس شكري- عبد الرحمن ابن خلدون: في مجلة المقتطف رقم 71.
- نجاتي صدقي- عبد الرحمن ابن خلدون أول فيلسوف عربي يحاول تفسير التاريخ مادياً. في مجلة الطليعة، رقم 02.
- نشأت (م.أ). ابن خلدون رائد اقتصادي، في مجلة مصر المعاصرة. القاهرة 1944 مجلة 28 نايت بلقاسم مولود. الجزائر وابن خلدون تأثير هابي حياته ومقدمة في الأصالة جوان، جويلية 1978. عدد 58.
- هيرناندير كروز. التكوين الفلسفي لابن خلدون وحدود وضعيته التاريخية، في أعمال ندوة ابن خلدون 14-16 فبراير 74 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- هلال أمين الفكرة الإسلامية وراء نظرية ابن خلدون السياسية في مجلة الحديث. رقم 08.
- وافي علي عبد الواحد: ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع. في أعمال مهرجان ابن خلدون بالقاهرة يناير 1962.
- وافي عبد الواحد: عبد الرحمن بن خلدون. حياته وآثاره مظاهرة عبقرية. العدد04. وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار مصر 17 أبريل 1962.
- وجدي محمد فريد: ابن خلدون في الميزان في مجلة المقتطف سنة 1932.
- وهبي محمد: ابن خلدون أبو الاجتماع. في مجلة الأديب عدد11. سنة 1948.
- وهبي محمد: ابن خلدون وما أداه إلى دراسة التاريخ في مجلة الأديب، عدد 08 سنة 1948 ص34.

- المغربي عبد القادر: ابن خلدون بالمدرسة العادلية بدمشق- في مجلة محمد والعرب دمشق 1929 ص38-82.
- يونسي عبد الحميد: الأدب الشعبي عند ابن خلدون في مجلة سجل الثقافة الرفيعة السنة الخامسة، عدد 48 سنة 1961.

"ب" الكتب:

- ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً- بيروت منشورات دار الكتاب اللبناني.
- ابن خلدون عبد الرحمن: شفاء السائل لتهذيب المسائل. بيروت. المطبعة الكاثوليكية.
- ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون – بيروت دار الكتاب العربي.
- ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط 03.
- ابن عاشور محمد فاضل: ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع، القاهرة منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية 1962.
- أحمد الجزائري محمد: تاريخ ابن خلدون، تونس، دار الكتب الوطنية، ج2.
- بدوي عبد القادر عبد الرحمن: مؤلفات ابن خلدون- تونس الدار العربية للكتاب.
- البستاني فؤاد أفرام: ابن خلدون العمران البدوي. بيروت منشورات الآداب الشرقية.
- بوتول فاستون: ابن خلدون الفلسفة الاجتماعية- دار إحياء الكتب العربية.
- الجنحاني الحبيب: المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية- تونس. الدار التونسية للنشر 1973.
- الحاجري محمد طه: ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة- بيروت دار النهضة العربية 1980.

- حسين طه: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية القاهرة- مطبعة الاعتماد.
- الحصري: دراسات عن نقدية ابن خلدون القاهرة مكتبة الخانجي 1961.
- دي بور(ت ج): الفلسفة في الإسلام. القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1957 ترجمة محمد الهادي أبو ويرة.
- الرواثبي (فرج بن محمد) تاريخ ابن خلدون- تونس دار الكتب الوطنية، ج06.
- الزمرلي حسن: عبد الرحمن ابن خلدون- تونس. مطبعة الشمال.
- الزمرني حسن. علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج. بيروت. دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1972.
- سفيتلانا (باتسيفا): نظريات ابن خلدون- تونس. دار المغرب العربي 1978.
- السنوسي زين العابدين: عبد الرحمن ابن خلدون- تونس. مطبعة العرب.
- شريط عبد الله: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1975.
- الشمالي عبده: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها. بيروت دار صادر 1965.
- الصغير ابن عمار: التفكير العلمي عند ابن خلدون، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1965.
- صليبا جميل: ابن خلدون منتجات دمشق مطبعة ابن زيدون 1933.
- صليبا جميل: تاريخ الفلسفة العربية. بيروت. دار الكتاب اللبناني. 1973.
- عابد الجابري محمد: العصية والدولة- معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي دار البيضاء 1971.
- عبد السلام أحمد: دراسات في مصطلح السياسة عند العرب- تونس. الشركة التونسية للتوزيع.
- عبد المولى محمود: ابن خلدون وعلوم المجتمع. تونس الدار العربية للكتاب.
- عنان محمد عبد الله: ابن خلدون. حياته وتراثه الفكري. القاهرة مطبعة مصر 1962.

- فروخ عمر: فلسفة ابن خلدون – بيروت 1962.
- القفصي (علي بن محمد بن الثاج الاجري): تاريخ ابن خلدون- تونس. دار الكتب الوطنية ج3-4.
- تمير بو حنا: مقدمة ابن خلدون- تونس الدار العربية للكتاب.
- كرو محمد: العرب وابن خلدون- تونس الدار العربية للكتاب.
- للحوفي أحمد محمد: مع ابن خلدون- القاهرة مكتبة نهضة مصر.
- ماجد عبد الرزاق مسلم: دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية. دمشق منشورات وزارة الإعلام. 1976.
- المراق عبد الكريم: أضواء على مقدمة ابن خلدون، دراسة ونصوص مسترسلة تونس. دار المعرفة للنشر.
- مغربي عبد الغني: ابن خلدون حياته وأعماله، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1971.
- مغربي عبد الغني: الفكر الاجتماعي لدى ابن خلدون الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
- الملاح محمود: نظرية ثانوية في مقدمة ابن خلدون مع التعريف بابن خلدون- بغداد. مطبعة أسعد 1956.
- الملاح محمود: وثائق وحقائق في مقدمة ابن خلدون. بغداد 1955.
- مناهل: الأدب العربي 21. مختارات من ابن خلدون القاهرة: دار الكتاب العربية 1944.
- نشار سامي: مناهج البحث عن مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي 1965 المكتبة الفلسفية- دار المعارف.
- الورتاني علي بن أبي بكر: تاريخ ابن خلدون- تونس دار الكتب الوطنية ج2.
- الوردي علي: منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته- القاهرة معهد الدراسات 1962.

- الوسلاتي. عمر بن محمد: تاريخ ابن خلدون. تونس دار الكتب الوطنية.
- وافي علي عبد الواحد: ابن خلدون منشئ علم الاجتماع. ظهر في سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب- دار نهضة مصر. القاهرة 1956.
- وافي علي عبد الواحد: ابن خلدون عالم الكتب- دار العالم العربي، القاهرة. 1973.
- وافي علي عبد الواحد: تقديم لمقدمة ابن خلدون. لجنة التألف والنشر القاهرة 197.

مفهوم العصبية :

لقد تعددت الرؤى حول تحديد مفهوم العصبية كما أرادها صاحب المقدمة، ولأجل ذلك نورد بعض هذه القراءات أولا لنخلص لرأي ومفهوم ابن خلدون للعصبية كما قرأها الكثير من أهتم بفكره :

1/- ساطع الحصري : يرى " أن نظرية العصبية من أهم وأطرف النظريات التي وضعها بن خلدون، نستطيع أن نقول أنها بمثابة المحور الذي يدور حوله معظم المباحث الاجتماعية وتتصل بها جميع المباحث في الاجتماع السياسي وتؤلف منظومة تامة في الاجتماع بوجه عام، والاجتماع السياسي بوجه خاص.." [1]

2/- طه حسين : "إن الدولة هي المحور الأساسي الذي تدور عليه أبحاث بن خلدون وليست العصبية، فالعصبية نظرية قائمة بذاتها عنده، وتشكل حجر الزاوية ..ولكن الغاية منها الدولة والملك، والعصبية وسيلة أو أداة للملك." [2]

ولنفس الرأي مال محمد عابد الجابري.

3/-إيف لاكوست: فيرى أنه لا يجب تضييق مفهوم العصبية حيث إن النظرية تبحث في السكان كافة، تبحث في : (العمران) من كل جوانبه. [3]

ويتفق سقيبلانا باتسييفا مع رأي لاكوست [4]

العصبية عند بن خلدون:

ومن النقاط التي ينبغي مراعاتها هي:

1/- إن مصطلح عصبية كان من الأمور المتداولة لذا لم يجتهد، ولم يجهد نفسه في تحريرها لغويا، خاصة أنه كان يكتب لقراء عرب.ولهذا فقد كانت الكلمة مغمورة في بحر المفردات اللغوية، حتى اهتم بها بن خلدون. [1]

2/- أن بن خلدون كان له السبق في شحن هذه الكلمة بالمحتوى الاجتماعي، ومنذ ذلك أصبح للكلمة دلالة مكملة للدلالة اللغوية، ولأجل ذلك جاء في لسان العرب أن العصبية: رابطة ديمومة، وتلاحم بين الأرحام، وتكاتف وتناصر [2]

3/- نجد من المعاني والمشتقات القريبة من الكلمة"الشد الشدة، الطي الالتواء، التجمع، الالتحام، الاستدارة حول الشيء أو المكان".

4/- أن العصبية تعني إجمالا "الحث على نصرة الأولياء والأقوياء، ظالمين كانوا أو مظلومين، الدعوة إلى المرافعة، والمحاماة، والمطالبة في سبيل الأقارب، فهي رابطة معنوية".

تعريف بن خلدون للعصبية:

فصل: فإن العصبية:.. تكون من الالتحام بالنسب في معناه ...ومن هذا تفهم معنى قوله ص تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم " بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام . حتى تقع المناصرة والنعرة [3] .

مرتكزات النظرية:

1/- انجذاب بن خلدون نحو السلطة بحكم بيئته الحضرية.

2/- أن بن خلدون عندما تأمل الوسط الجغرافي الذي ينتمي إليه المفعم بالصراعات رأى أن " القوة والغلبة " هي الفيصل القاطع في الحياة بالمغرب العربي وتأمل شروط الغلبة عند البعض والخضوع عند الآخر فكانت العصبية بالنسبة إليه وسيلة لا غلبة.

3/- أن الاجتماع البشري يقتضي الدولة، ولا بد للدولة من وازع ووازعها عنده العصبية " فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية، وإلا..... لم تتم قدرته على ذلك، وهذا التغلب هو الملك " [1].

4/- ابن خلدون لا يسمح بالفصل بين القوة والغلبة فهما وجهتان لعملة واحدة.

وبذلك تتضح الخلاصة التالية :

أ/ في البداية تكون سلطة حاكم القبيلة استشارية غير قاهرة ولا ملزمة لغيره، ثم تتطور إلى شكل نفوذ

ب/ الوازع في الحالة الأولى لا يكون لرئيس القبيلة فحسب بل هو العرف القبلي.

ج/ يتدرج شيخ القبيلة في مناصبه السلطوية حتى يصل إلى منصب الملك بمراحل مدروسة

5/- بن خلدون مزج نظريته بالنظرية المنسوبة إلى فلاسفة اليونان وهي نظرية التطور العائلي

6/- أن مفهوم العصبية لابن خلدون ونظريته في قيام الدولة على أساسها كان مثار جدل بين العلماء بين منصف له، وهم قلة.. منهم أوبن هايمر، وجمبلوفيتش، انتهيا في أبحاثهم إلى ما قاله بن خلدون وبين متجاهل له، بالرغم من الاستفادة من مقدمته. كول ديورانت [2]

وطرف آخر منكر لمساهمته في معالجة إشكالية السلطة والدولة كعابد الجابري.

مفهوم الدولة في الفكر الحديث:

إن الدولة هي أقوى النظم والمؤسسات الاجتماعية وأعمّها. فحيثما عاشت الكائنات البشرية سوياً فترة من الزمن، فإننا نجد هنالك التنظيم والسلطة. وحيثما نجد التنظيم والسلطة، فهنالك تتوافر لدينا نواة الدولة. وإن الإسكيمو هم المثال البارز لشعب يكون مجتمعاً ولكنه لا يكون دولة، وهم الشعب الذي ينتمي على حد تعبير توينبي إلى حضارة توقفت عن النمو(01).

وكما علمنا الكتّاب اليونانيون، تعد الدولة نظاماً أو مؤسسة طبيعية وضرورية. والدولة طبيعية بمعنى أنها نشأت من الغرائز الأولية عند الإنسان وأنها نماء تدريجي(02).

ويقرر أرسطو أن الإنسان بالطبيعة كائن سياسي (03)، فالأسرة الأصلية في رأيه قد تطورت حتى أصبحت قرية، وعندما ترابطت قرى كثيرة نشأت المدينة أو الدولة. فكل مدينة أو دولة هي عمل من أعمال الطبيعة. ويرى أرسطو أن كيان الإنسان لا يتحقق إلا بمعيشته في دولة، لأن من لم يكن عضواً في دولة أو لم يكن صالحاً لأن يكون عضواً في دولة إنما يكون إما الهاً أو حيواناً، فهو إما فوق الدولة أو تحتها.

ويتحدث الكتاب المحدثون أحياناً عن الغريزة السياسية للإنسان. ويعنون بذلك أن الدولة تستمد جذورها من الدوافع الطبيعية عند الإنسان وأنه لا يستطاع اقتلاعها بسهولة. فنحن نولد في الدولة، ولا نختارها عادة، كما أنه ليس من حقنا أن ندعي الانفصال عنها. وأنسبنسر على خطأ حين يقول أن الفرد له الحق في تجاهل الدولة.

وإن الدولة ضرورية لنمو الإنسان وتطوره . فبدون الدولة لا يستطيع الإنسان أن يبلغ ذروة الكمال . ويذهب أرسطو إلى الدولة أتت الى الوجود أولا لكي يمكننا أن نعيش، ولكن استمرت في الوجود لكي يمكننا أن نعيش معيشة سعيدة .

فهو يقول إن الدولة تأتي إلى الوجود ناشئة من الحاجات الضرورية للحياة، وتستمر في الوجود من أجل الحياة الطيبة . وبتعبير آخر يرى أرسطو أن إرضاء الحاجات الاقتصادية هو السبب الرئيس لوجود الدولة أول الأمر، ولكن استمرارها يقوم على حقيقة أنه لا غنى عنها للحياة الطيبة أو لحياة السعادة والنبل . وإن هذه المعاني التي برر بها أرسطو قيام الدولة

(01) وهو تصور قاصر لفهم تطور الدولة. وأن الحضارة لا تتوقف ألا لتموت الدولة. ولا يمكن أن يكون هناك شخص لا تحكمه صيغة من صيغ الدولة.

(02) يقول ابن خلدون:ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم العمران فلا بد من وازعٍ يدفع بعضهم عن بعض لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم. فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة. حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك. وقد تبيَّن لك بهذا أنه خاصة للإنسان طبيعية. ولا بد بد لهم منها. وقد يوجد في بعض حيوانات العجم- على ما ذكره الحكماء. كما في النحل والجراد. لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه. 422/1.

(03) بينما يقول ابن خلدون في مقدمته:أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم:الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران . ج420/1.

تردد ما أكده أستاذ أفلاطون من قبل، حين ذهب إلى ضرورة قيام الدولة تستند إلى حقيقة أنه لا يستطيع إنسان أن يكتفي اكتفاء ذاتيا . فحاجة الإنسان إلى التعاون الاجتماعي والجهد الجماعي في مرحلة معينة من مراحل التطور إنما تعبر عن نفسها في الدولة .

وإذ أننا قلنا إن الدولة هي أقوى النظم والمؤسسات الاجتماعية وأعمها وأنها طبيعية وضرورية، فما هي إذن الدَّولة؟

(أ) الدولة والمجتمع:

إن معرفتنا بالدولة يستلزم التمييز بينها وبين المجتمع، ثم بينها وبين الحكومة، ثم بينها وبين الأمة. فأولاً: إن الدولة ليست متوحدة مع المجتمع. ويلاحظ ارنست باركر Ernest Barker. إن المجتمع والدولة يستهدفان تحقيق نفس الغرض الأخلاقي ومن ثم فهما يمتزجان ويستعير كل منهما من الآخر، ويذهب إلى أن مجال المجتمع هو التعاون الاختياري، وأن نشاطه يقوم على الإرادة الطيبة وأن منهجه يعتمد على المرونة على حين أن مجال الدولة هو العمل الآلي وأن نشاطها يقوم على القوة وأن منهجها يتصف بالجمود. ولم تكن الدولة متميزة عن المجتمع

عند المفكرين الإغريق الأوائل. ويمكن تفسير هذا التوحد بين الدولة والمجتمع في نظرهم بالظروف الخاصة التي سادت في دولة المدينة اليونانية. فدولة المدينة كانت صغيرة في الحجم ومندمجة السكان. وكان المواطنون يعرفون بعضهم بعضاً شخصياً ويجتمعون سوياً في اجتماعات عامة لتشريع القوانين واختيار الحكام. وكانوا مترابطين ترابطاً وثيقاً بواسطة المصالح المشتركة. وكانت المشاكل التي تواجههم بسيطة في طبيعتها. وفي مثل هذه الظروف كان من الطبيعي عند الإغريق أن يعتبروا الدولة الوعاء الذي يشتمل على حياة الإنسان جميعها. وكان موقف الإغريق من مدينتهم أو دولتهم يتمثل في القول"إنها ملكنا ونحن ملكها". ولقد كانت المدينة تؤدي وظائف متعددة، إذ أنها كانت الدولة والكنيسة والمدرسة جميعاً في واحد. كما كانت الحياة الاجتماعية بالنسبة للإغريق حياة المواطنة. وإن النظرية الإغريقية عن المجتمع كانت نظرية " مجتمع الدولة" القادر على كل شيء، وقد عكس هيجل في الأزمان الحديثة ترتيب هذا المصطلح وطوَّر فكرة "دولة المجتمع" التي مهدت الطريق للنظام السلطاني الشمولي.

ومهما كانت المبررات التي جعلت الإغريق يوحدون بين الدولة والمجتمع، فإنه ليس لدينا اليوم مثل هذه المبررات. فالدولة إن نحن فسرناها تفسيراً دقيقاً ما هي إلا نظامي سياسي. فهي مجتمع منظم تنظيماً سياسياً. وأن المجتمع في الواقع قد يكون أوسع وأضيق من الدولة. إن أنه لا يستعمل للدلالة على المجتمع البشري كله، مثلما يستعمل لوصف جماعة القرية الصغيرة. وبمعناه الأوسع يتجاوز الدولة الفردية والحدود القومية كالمجتمع الإسلامي مثلاً.

وإن الدولة هي جزء من المجتمع ولكنها ليست شكلا للمجتمع . فهي أكثر من عدد من الأفراد صادف أنهم يعيشون سويا ولكنهم مترابطون ترابطا مفككا. وإنما هي عدد من الناس مجتمعون سياسيا ومنظمون في ظل شكل من أشكال الحكومات وعن طريقه، ويشغلون جزءا معينا من سطح الأرض .

الدولة والحكومة :

إننا في حديثنا العادي نستعمل مصطلحي الدولة والحكومة كل مكان الآخر، ولكن تأمل لحظة يكفي لبيان أنهما ليسا شيئا واحدا .فالحكومة أداة الدولة . ولقد جاء في حكم من الأحكام المحكمة العليا الأمريكية التمييز التي بين الدولة والحكومة " أن الدولة ذاتها شخص مثالي، غير محسوس وغير مرئي وغير قابل للتغير .أما الحكومة فهي وكيلة عن الدولة، وفي دائرة وكالتها تعد ممثلا كاملا، ولكنها خارج هذه الدائرة تعتبر اغتصابا خارجا عن القانون " والحكومة على حد تعبير روسو ما هي إلا " أداة حية " وهي التنظيم العملي للدولة الذي تشكل عن طريقه إرادة الدولة ويعبر عنها وتتحقق . وأن أهداف الدولة وأغراضها تنفذ عن طريق الأداة الحكومية، فبدون الحكومة لا يقوم وجود للدولة، فالدولة تجريد إلة حد كبير، ولكن الحكومة واقع يدرك بالحواس، والدولة دائمة وثابتة على أن الحكومة مؤقتة .

تعريفات حديثة للدولة :

هناك تعريفات عديدة ومتنوعة للدولة، ونحن هنا نسوق هنا بعض ما يبدوا مرضيا منها . فإن هولاند HOLLAND يعرف الدولة بأنها مجموعة عديدة من من الكائنات البشرية تشغل عادة إقليما معينا، وتسود فيه إرادة الأكثرية أو إرادة طبقة محددة من الأشخاص بفعل قوة مثل هذه الأكثرية ضد أي عدد يعارضها من بينهم . وأما فيليمور Philimor فيعرف الدولة من وجهة نظر القانون الدولي بأنها " شعب يشغل بصفة دائمة إقليما محددا، ويترابط بالقوانين العامة والعادات والتقاليد في هيئة سياسية واحدة، ويمارس عن طريق أداة حكومة منظمة سيادة مستقلة وسيطرة على جميع الأشخاص والأشياء داخل حدوده، ويقدر على أنه يعلن الحرب ويعقد السلم وأن يدخل في جميع العلاقات الدولية مع شعوب الكرة الأرضية ."

ويعرف برجسburgess الدولة كقسم خاص من البشرية ينظر إليه كوحدة منظمة .

وإن هذا التعريف في جوهره هو نفس التعريف الذي قدمه بلنتشكي bluntschliالذي يقول بأن الدولة هي الشعب المنظم سياسيا في إقليم محدد . وإن تعريف وودرو ولسن wilsonموجز وبسيط.

فالدوله هي عنده شعب منظم للقانون داخل إقليم محدد "

ولقد وجدت للدولة تعريفات أخرى على أيدى كتاب معاصرين .

فإن جارنر Garnerيقول " إن الدولة كمفهوم في علم السياسة والقانون العام هي مجموعة من الناس يزيدون أو يقلون عددا ويشغلون بصفة دائمة قطعة محددة من الأرض، ويكونون مستقلين تماما أو تقريبا من السيطرة الخارجية، ويملكون حكومة منظمة تدين لها هيئة المواطنين بالطاعة المعتادة ".

وإن تعريف ماكيفر الذي يحمل معه صبغة تعددية هو " إن الدولة هي اتحاد يحفظ داخل مجتمع محدد إقليميا الظروف الخارجية العامة للنظام الاجتماعي وذلك للعمل من خلال قانون يعلن بواسطة حكومة مخولة بسلطة قهرية لتحقيق هذه الغاية" .

وإن هذا التعريف يشتمل على عناصر يجب دخولها في أي وجهة نظر سليمة إلى الدولة فهو يؤكد " القانون " " والحكومة " و" السلطة القهرية " و" الوحدة الاجتماعية " و" الإقليم المحدد بوضوح . و" الظروف الخارجية العامة للنظام الاجتماعي ".

ويعرف لاسكي الدولة بأنها " مجتمع إقليمي مقسم إلى حكومة ورعية وهو يدعى داخل مساحته الطبيعية المخصصة، سلطة عليا على جميع المؤسسات الأخرى ". كما أنه في مؤلف آخر من مؤلفاته يعرف الدولة: " كتنظيم يمارس السلطة القهرية من أجل تحقيق الصالح الاجتماعي ".

ويقول آرنست باركر بأن الدولة هي " إتحاد خاص يوجد لتحقيق الغرض الخاص من الإحتفاظ بنطة إجبارية من النظام القانوني، ويعمل لهذا من خلال القوانين المفروضة بواسطة جزاءات موصوفة ومعينة ". أما التعريفات الأخرى مثل تعريفات هيقل فهي مجردة تجريدا عاليا وأميل إلى معالجة الدولة من جانب واحد.

نقد نظرية العصبية:

لقد ظلت هذه النظرية مسيطرة على عقول المؤرخين وفلاسفة التاريخ لعقود من الزمن وأصبح التصور الخلدوني هو المسيطر على كل الطروحات والرؤى، ولذلك فلا مناص من القول أن الزمن قد تجاوز هذه االنظرة وأصبحت العصبية هي الخزان السيء الذي ينخر جسم تاريخنا كلما حاولنا أن نبحث فيه من جديد.

غير أن الذي يحمد للعلامة بن خلدون هو تعمقه في فهم أحوال العرب وتقلباتهم السياسية وتعاقب دولهم، ثم محاولته بعد ذلك بحث الأسباب الحقيقية لتكاثر الثورات وزوال الدول . ولكن النتيجة التي صاغها بناء على هذه المعطيات والاستقراءات، كانت ضربا من المجازفة العلمية في نطاق عقيم شاذ.إذ لا يمكن للحمة الدم أن تضل سلطة قائمة وأن تضل هي المحرك الحقيقي لدواليب الدولة.إن العصبية القبلية يمكن أن تكون عاملا فعالا في تنشيط النخوة والحمية وحماية الأمة حينما يتجه بها الوجه الايجابي، ولكنها في آخر المطاف حقل من الألغام يتفجر على رأس المنظرين والمفكرين حيثما يعتبرونها هي السبيل الأوحد لتأسيس الدولة واستمرارها.

ويمكن أن نوجز السلبيات العصبية في ما يلي:

1- تقف حجر عثرة أمام تطور الدولة

2- عرقلة فعالية الدولة وامتدادها

3- هشاشة بناها وسرعة انقضاضها

4- تكوين الأحقاد والتكتلات الخفية

5- ضعف الولاء وهشاشة الشعور بالانتماء للدولة.

ولا يمكن لمن أراد تقوية الدولة أن يحقق أمنيته إلا للقضاء على العصبية، لأن قوة الدولة تتطلب وجود مؤسسات فعالة وقيادة قوية مع توافر قدر من الانضباط الضروري وهذه الأمور طبعا تتناقض مع طبيعة العصبية، فإبن خلدون يرى بأن الهدف الذي تسعى إليه العصبية هو الملك أي تسعى لتشييد دولة وحتى وإن صح

هذا فلا يمنع التذكيربأن العصبية ينتهي دورها الإيجابي عند هذا الحد أي عند تنصيبها ملكا، بعد إسقاط الدولة السابقة وعندئذ ينتهي دورها السلبي – بطابعه المشاغب – في الظهور ذلك الطابع الذي يأبى كل تطور، لا يخدم مصالح العصبية والأنانية القبلية وهكذا تصطدم مؤسسات الدولة ونظمها وقوانينها المرنة بالأعراف القبلية وتقاليدها المتحجرة وعندها يبدأ الصراع بين المؤسستين القبيلة والدولة وبغياب الاستقرار والأمن يتعطل النمو الإقتصادي والإجتماعي والحضاري بالجملة. [1]

وبمثل هذه المرارة يعبر الأستاذ بوزيان الدراجي فيقول :

" تبين لي عندما تأملت الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي أن ظاهرة العصبية القبلية

– في هذه الربوع – وقفت في طريق أي مسيرة تنظيمية أرادتها أو قررتها الدولة التي نشأت في هذه الديار، بحيث كانت العصبية دوما بمثابة حجر عثرة بل غدت معول هدم وتدمير لكل خطوة حضارية تخطوها أية دولة من تلك الدول " [1]

ويقول أيضا : " .... وهنا يصبح إسقاط النظم القبلية المتحجرة ضرورة ملحة في سبيل الحفاظ على كيان الدولة أي دولة كانت لأن النظم القبلية تتناقض مع نظم الدولة . بل ثبت بفضل استقراء النصوص التاريخية وجود صراع دائم ومزمن بين النظامين وذلك الصراع المزمن يؤكد حتما استحالة التعايش الدائم بينهما ولا ينتهي ذلك الصراع إلا بتغلب أحد الطرفين على نقيضه (الدولة أم القبيلة) [2]

ولكن ثمة مجتمعات إنسانية عديدة ربحت فيها الدولة الصراع لصالحها فسادت نظمها على غيرها. بعد أن تمكنت من دمج القبائل والعشائر، ضمن كيانها المستحدث، وبذلك تمكنت من مواكبة المسيرة الحضارية للإنسانية وهو ما يمكن ملاحظته في المجتمعات المتحضرة قديما كمصر والفرس والإغريق والرومان ولأمر ما قال نبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم " دعوها فإنها نتنة " ولا جرم أن المعاني الخفية في هذا الحديث ..... كثير تمس ذات الفرد وذات القبيلة وذات الدولة .

الهوامش والمراجع:

01- دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص 333

02 - العصبية والدولة ص 176، ص 250 بتصرف .

03-lacoste .IBn Khaldoun. naissance de l,histoire passe du tiers monde.edition maspero.paris.pp116/117

04- العمران البشري في مقدمة ابن خلدون ترجمة رضوان إبراهيم الدار العربية ليبيا / تونس 1978 .ص18

05- تحت تعني العصبية التعصب القبلي، والتعصب المذهبي، قبل عصر ابن خلدون، وقد ورد هذا المفهوم عند الغزالي في كتاب ميزان الاعتدال ص 405 / 406.

06- المقدمة ج 2 ص 791، 792 .

07- المقدمة 174 وما بعدها .

08- المقدمة ج 3 ص 1017-1018 .

09- قصة الحضارة ج 1 ص 44 وما بعدها

10- العصبية القبلية ص 2

11- العصبية القبلية ص 2

12- العصبية القبلية ص 12